اكتشاف المكتبة والمخطوطات (وادى قمران)

كان محمد الديب راعى الغنم من قبيلة «طعم الريح» يرعى غنمه فى منطقة تسمى وادى قمران فى شمال غربى البحر الميت فى فلسطين فى يوم من أيام ربيع ١٩٤٧ وشردت إحدى غنماته يقال أنها كانت «ماعز» وبحث عنها واعتقد أنها سقطت فى أحد كهوف البحر الميت بفلسطين فضرب حجرًا داخل الكهف فارتطم الحجر بآنية فخارية وكسرها. ويعرف هذا الكهف اليوم بين سلسلة كهوف البحر الميت بالكهف رقم ١. وأخذ الفضول راعى الغنم فدخل هو وزميل له راعٍ آخر من فتحة الكهف الضيقة فاكتشفا عدة جرار فخارية من طين مصفوفة فى صفوف بعضها كان مغلق الحلق. وبعض تلك الجرار كانت تحتوى على لفافات وحزم من جلود. وقد عرف فيما بعد أن اللفافات المكتشفة كانت تضم سبع لفافات كبيرة ملفوفة فى كتان إلى جانب بعض قطع من لفافات متهالكة. هذه اللفافات كانت مكتوبة بالعبرية والآرامية. وكانت هذه اللفافات هى الأولى فى سلسلة اللفافات التى تم اكتشافها والتى تعرف اليوم بـ (مخطوطات البحر الميت) أو (لفافات البحر الميت).

وقد قام كبير الأساقفة صموئيل فى دير الأرثوذكس السوريين سانت مارك بشراء المخطوطات (اللفافات) الآتية فى القدس من أحد دلالى الكتب فى بيت لحم.

أ ـ لفافة كاملة عن النبى عيساياه وطولها ٢٤ قدمًا (سبعة أمتار ونصف) مكتوبة بالعبرية وتكاد تكون طبق الأصل مع سفر عيساياه فى الكتاب المقدس العبرى. هذا المخطوط يعرف أحيانًا باسم (لفافة عيساياه دير سانت مارك).

ب ـ دليل النظام. لفافة تتضمن القواعد والتعليمات المعمول بها فى الطائفة والتى ينصاع لها أعضاء الطائفة المقيمة فى كهوف البحر الميت.

ج ـ شرح سفر حبقوق. وهو يقتصر على الفصلين الأولين من السفر مع شرح وتفسير لجزئيات السفر وهذا الشرح يشتمل على بعض المعلومات والأحداث التاريخية الممتعة.

د – أبوكريفا التكوين. وكانت هذه اللفافة تعرف أولًا باسم (لفافة لاميش). وتحتوى على بعض التقريرات والتعليقات حول بعض البطارقة الذين ورد ذكرهم فى سفر التكوين مثل نوح وإبراهام وغيرهما من الشخصيات فى الكتاب المقدس العبرى مثل سارة ولاميش ولكن بشيء من التفصيل. هذه اللفافة مكتوبة بالآرامية.

ومن الجدير بالذكر أن كبير الأساقفة السورى قد أحضر تلك اللفافات المذكورة بعاليه إلى الولايات المتحدة وقد تم بيعها فى نيويورك بمبلغ ٢٥٠.٠٠٠ دولار سنة ١٩٥٥م إلى الجنرال إيجال يادين ابن الدكتور إ. ل. سوكنيك، أستاذ الآثار فى الجامعة العبرية بالقدس وبعدها طارت اللفافات إلى الجامعة العبرية.

أما اللفافات الثلاثة المتبقية من اللفافات السبع العائدة إلى الكهف رقم ١ فقد تم بيعها إلى إ. ل. سوكنيك أستاذ الآثار بالجامعة العبرية والمشار إليه سابقًا، وكان أستاذًا للآثار الفلسطينية. هذه اللفافات الثلاث تسير على النحو الآتى:

أ – لفافة غير كاملة من سفر عيساياه. وقد أطلق عليها أيضًا اسم (لفافة عيساياه الجامعة العبرية).

ب ـ لفافة الحرب. وعنوانها الكامل هو (حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام). وتحتوى على التعليمات والتوجيهات الخاصة بالسلوك والتصرف فى حرب فعلية أو مفترضة يشنها أعضاء الطائفة ـ المذهب ضد الأعداء.

ج – تراتيل تقديم الشكر وتضم نحو ثلاثين ترنيمة أو أنشودة سريعة تشبه إلى حد كبير مزامير داود فى الكتاب المقدس العبرى (العهد القديم).

وقد يكون من النوافل أن نذكر أن المخطوطات الأربعة التى تم بيعها فى نيويورك بمبلغ ٢٥٠.٠٠٠ دولار خضعت بحكم محكمة الضرائب لضريبة المبيعات. وقد كشف عن تلك الحقيقة عندما تقدم كبير الأساقفة صموئيل بطلب

إعفاء من الضرائب لمؤسسته التى آلت إليها ملكية المخطوطات. وكان من بين مهام المؤسسة فيها ذكرت تمويل تعليم الرهبان السوريين وإدارة وصيانة دير سانت مارك فى القدس.

ومن الجدير بالذكر أيضًا أن مخطوطات الكهف رقم ١ السبعة موجودة الآن فى الجامعة العبرية فى القدس.

وقد أطلق على هذه المخطوطات عدة أسماء من بينها:

١- مخطوطات البحر الميت أو لفافات البحر الميت طالما أنها وجدت فى محيط كهوف البحر الميت.

٢- مخطوطات قمران أو لفافات قمران أو كتابات قمران طالما أنها وجدت فى أطلال موقع قديم يطلق عليه اليوم اسم (قمران).

٣- لفافات من برارى يهوذا طالما أن الجماعة التى أفرزت هذه اللفافات هم من اليهود الذين انعزلوا فى تلك البرارى.

٤- لفافات بيت المقدس أو مخطوطات القدس حيث آلت فى النهاية إلى مدينة القدس.

٥- لفافات أو مخطوطات عين فشكة. وهى مجرى مائى فى تلك المنطقة يبعد سبعة أميال ونصف جنوب جريشو (جرش) وميل واحد من الشاطئ الغربى للبحر الميت وهى على ارتفاع ١٠٠٠ قدم من سطح البحر.

٦- كتابات البحر الميت المقدسة. حيث الغالبية العظمى عبارة عن كتابات يهودية مقدسة.

٧- الكتابات الطائفية. حيث تنتمى إلى طائفة دينية انشقت عن اليهود وهى فى الأعم الأغلب طائفة (الإسينيين)؛ وربما تطلق على الكتابات غير المقدسة.

والاسم الغالب هو الاسم الأول (مخطوطات أو لفافات البحر الميت).

ومن الجدير بالذكر أن هناك إشارات ببليوجرافية قديمة ونصوصًا تدل على أن

هذا الكشف ليس هو الأول فى بابه وإنما كانت هناك كشوف قديمة شبيهة فهذا هو الأسقف إبيبيفانيوس، أسقف سلاميس من القرن الرابع الميلادى يشير إلى مخطوطات العهد القديم بالعبرية واليونانية التى وجدت فى الجرار الطينية بالقرب من جريشو (جرش) سنة ٢١٧م. كما أشار كل من أوريجن (ق ٢-٣م) ويوسبيوس (ق ٣-٤م) إلى هذا الكشف. وطبقًا لما قال به أوريجن كان من بين المخطوطات المكتشفة نسخة باليونانية من مزامير داود.

ويؤكد ذلك ما قال به السيد/ بطريرك الكنيسة النسطورية تيموثى الأول (٧٨٠-٨٢٣م) فى خطاب له بالسوريانية موجه إلى سيرجيوس حاكم إيلا من أن كتبًا وجدت بالقرب من جريشو فى منزل على الصخور ويستمر فى القول بأن «أكثر من ٢٠٠ نسخة من مزامير داود» كانت من بين هذه الكتب.

ولقد أغل لنا الكهف رقم (١) مواد أخرى إلى جانب المخطوطات السبعة سابقة الذكر: الكثير من قطع وشرائح الرقوق والبردى؛ قطع من الكتان مساحتها ما بين ١٦ إلى ٢٠ بوصة على حافتيها زخارف منسوجة بشرائط زرقاء ضيقة وحواف منسوجة كانت تستخدم فى لف اللفافات كأغلفة واقية لها؛ جرار طينية أسطوانية الشكل، رقبتها وفوهاتها ضيقة تشبه السلطانية الصغيرة كانت توضع بها اللفافات؛ أجزاء من لمبتين من طراز هيللينى مع خطام مستطيل؛ قطع مكسرة من جرار عديدة، ملء يد من حطام لمبتين وفوهاتهما تعودان إلى العصر الرومانى وجدت فى الكهف رقم (١) تم اكتشافها أو إعادة اكتشافها سنة ١٩٤٩ وغالبية هذه المواد موجودة فى متحف فلسطين بالقدس.

وعندما أعلن عن هذا الكشف الذى سمى بالكشف الدرامى آثار عاصفة من الاهتمام العام وكتب عنه العديد من الكتاب ووصفه بعضهم بأنه ظاهرة فكرية فريدة فى الثقافة المعاصرة، ويعزو البعض هذا الاهتمام بأنه جاء نتيجة للتطور الحاصل فى وسائل الاتصال والإعلام المعاصرة وأيضًا لأنه اهتمام طبيعى من جانب المسيحية الغربية حيث إن المخطوطات جاءت من فترة تعاصرت فيها المخطوطات مع ظهور عيسى المسيح والديانة المسيحية. وليس ثمة شك فى أن هناك علاقة بين

المخطوطات والمسيحية ولأن تأثير هذا الكشف كان مبالغًا فيه من قبل بعض الكتَّاب فقد ثار جدل كبير حول هذا الكشف مما خلق رأيًا عامًّا واسع النطاق حوله. ولأننا حتى اليوم لم ننشر ونحقق إلا جانبًا يسيرًا من محتويات تلك المخطوطات فسوف يظل الجدل قائمًا والرأى العام متسائلًا والاهتمام بها قائمًا. والحقيقة أن الغرب على جانبى الأطلنطى كان أكثر اهتمامًا من العرب والمسلمين بتلك المخطوطات. ولابد من القول بأن كمية المخطوطات كما سنرى فيما بعد هى أكبر بكثير من المجهود الفردى الذى يمكن أن يبذل فى التحقيق والنشر ولابد من إنشاء مؤسسة عالمية للقيام بهذا المشروع. لقد كان مدى الرأى العام ورأى الباحثين حول محتويات وتواريخ وأهميات تلك اللفافات ومكانها ومكانتها فى التاريخ اليهودى وعلاقتها بالمسيحية والإسلام، كان هذا كله مما يجعلنا نعتقد أن الجدل والاهتمام بها سوف يستمر لعقود طويلة قادمة.

ولعل تفاصيل كشف تلك المخطوطات فى كهوف البحر الميت وما حولها سوف تقدم لنا صورة كاملة حول القصة الدرامية التى تكمن خلفه بحلقاتها المتصلة بهذا الكشف. وطبقًا لتقرير مدير الآثار فى الأردن آنذاك (ج. ل. هاردنج) يعزى الفضل فى هذا الكشف إلى محمد الديب الذى أشرت إليه سابقًا الذى كان ينتمى إلى قبيلة «طعم الريح» البدوية، وبينما هو يبحث عن ماعز ضالة ـ حيث كان يرعى قطيع غنم ـ بالقرب من وادى قمران، وجد كهفًا فى الصخر المتحدر فى سفح التل، وقد ألقى الصبى حجرًا فى فوهة الكهف عسى تكون الماعز قد هربت إلى الكهف، إذا به يسمع صوت شيء فخارى ينكسر. ولقد استعان براعٍ آخر زميله فى الدخول إلى الكهف بحثًا عن ضالته وربما أيضًا بحكم الفضول وحب الاستطلاع أو طمعًا فى العثور على كنز.

هناك وجدا عدة جرار كبيرة كما أسلفت مرصوصة على أرض الكهف، إحداها تحطمت بحكم الحجر الذى ألقاه الصبى محمد الديب من قبل. وقد شق الصبيان طريقهما بين الحطام وقطع الفخار المتناثرة هنا وهناك بحثًا عن كنز النقود المعدنية التى توقعا العثور عليها فى الكهف، ولكن بدلًا من الذهب وجدا بعد فحص الجرار

السليمة بعض اللفافات الجلدية والبردية الملفوفة فى قماش. وبحاسة البدوى الفطرية شعرًا بأن هذه اللفافات ذات قيمة أثرية، وحملا أحسنها حسب المظهر العام إلى تجاّر بيت لحم متجنبين الطرق الرسمية المتبعة فى المملكة الأردنية الهاشمية. وكان أحد التجار الذين عرضت عليهم هذه اللفافات قد أخطر كبير أساقفة القدس وهو سورى اسمه (مار أثينايوس بيشو صموئيل)، بوجود هذا الكنز على اعتقاد منه بأن هذه اللفافات هى مخطوطات سوريانية قديمة؛ ولما رأى صموئيل أحد هذه المخطوطات أدرك أنها مكتوبة بالعبرية وليس بالسوريانية ولم يستطع الرجل تقدير قيمة هذه المخطوطات، سواء تلك المكتوبة على رق أو على بردى. وحاول شراء كل المخطوطات التى أغلها الكهف ولكن مر بعض الوقت حتى استطاع الحصول فقط على خمس منها إلى جانب بعض القطع الأخرى وخزنها فى دير سانت مارك فى القدس القديمة.

ولقد أدرك صموئيل بحسه أن هذه الكتابات القديمة قد يكون لها أهمية كبرى فى عالم البحث والعلم، فاستشار الرجل بعض أساتذة (مدرسة الكتاب المقدس) وهى مؤسسة تعليمية دومنيكانية فرنسية فى القدس القديمة تعنى بالدراسات الأثرية ودراسات الكتاب المقدس. وكان هناك أستاذ زائر هولندى هو الأب ج. ب. فان دير بلوج، استدعى كبير الأساقفة عن طريق الدير السورى وفحص النصوص فحصًا جيدًا وقد تعرف على أحد المخطوطات وهو نسخة باكرة جدًّا من سفر عيساياه. وعندما اصطحب بلوج هذه النصوص معه إلى المدرسة وتمعن فى دراستها اندهش طويلًا لوجود مثل هذه المخطوطات بالغة القدم على قيد الحياة وترك المسألة كلها للزمن بعد ذلك. وكان كبير الأساقفة صموئيل غير مقتنع برأى بلوج وطلب المقابلة مع السيد/ ج. ل. هاردنج مدير مصلحة الآثار الأردنية ولكن لم ينجح فى ذلك. وطلب كبير الأساقفة رأى واستشارة بطريرك إنطاكية السورى أيضًا والذى قدم له نصيحة بأقصر الطرق لتقدير قيمة وأهمية هذه المخطوطات وعمرها، وبعد ذلك قرر صموئيل أن يقوم بنفسه على تقدير قيمتها بالرغم من معرفته البسيطة بالعبرية. وبمساعدة من أحد الصحفيين اليهود واسمه (توفيا ـ

ويكسلر) استطاع أن يقرر ويتحقق من أن نص مخطوطة عيساياه هى التى جاءت فى الكتاب المقدس اليهودى مع بعض الاختلافات الطفيفة عن النص الأصلى (المازورى). ولم يستطع صموئيل الوصول إلى تقييم حقيقى لبقية المخطوطات التى فى حوزته.

وظل كبير الأساقفة صموئيل يبحث عن رأى خبير فى قيمة تلك اللفافات التى فى حوزته. وأخيرًا قام اثنان من أمناء مكتبة الجامعة العبرية فى القدس بزيارة الدير وبعد فحص اللفافات قالا بأنه من الضرورى أن تعرض هذه المخطوطات على أحد علماء علم الباليوجرافيا أى علم الكتابات قبل اتخاذ رأى قاطع فى قيمة ومدى قدم هذه النصوص. وكان البروفيسور إ. ل. سوكنيك كبير أثريى وأستاذ الآثار فى الجامعة العبرية بالقدس فى الولايات المتحدة آنذاك فى تلك الفترة. وعندما عاد إلى الجامعة فى نوفمبر ١٩٤٧ وأخطر بالأمر عن طريق أحد الدلالين (التجار) فى القدس، وبأن هناك مخطوطات باعها أحد الدلالين فى بيت لحم إلى كبير أساقفة القدس؛ وأن مخطوطات البحر الميت هذه لها قيمة كبيرة.

وفى مذكراته عن نوفمبر وديسمبر لعام ١٩٤٧ يسجل سوكنيك فرحته الغامرة وتأثره الشديد والتجربة الفريدة التى مر بها عندما زار دلّال الكتب فى بيت لحم وفحص المخطوطات والجرار التى كانت فى حوزة ذلك الدلال. وقد وقر فى نفسه الاعتقاد بأن الكهف الذى وجدت به المخطوطات كان مجرد جنيزا لدفن شتات الكتب؛ ولكنه فى نفس الوقت كان مدركًا تمامًا لأهمية وقدم اللفافات. وفى الأول من ديسمبر ١٩٤٧ كتب فى مذكراته يقول: «إننى كلما تقدمت فى القراءة، ازددت خوفًا من التفكير فيها، حيث إنها [المخطوطات] واحدة من أعظم الاكتشافات التى تمت فى فلسطين».

وكان سوكنيك قبل يومين من هذا المدخل قد استطاع كما ذكرت شراء معظم تلك اللفافات التى فحصها فى بيت لحم إلى جانب جرتين من الجرار الفخارية التى كانت بها اللفافات والمواد الأخرى. ومع نهاية ديسمبر ١٩٤٧م كان الرجل قد استطاع أن يجمع قدرًا كبيرًا من تلك المخطوطات. وكلما تعمق دراستها كلما كان أكثر قناعة بقدمها وأهميتها التى لا تبارى فى دراسة الكتاب المقدس اليهودى.

وكانت اللفافات العبرية التى اشتراها سوكنيك بذاته ـ بخلاف ما اشتراها ابنه من نيويورك ـ ثم نشرت تباعًا بعد وفاته فى القدس تبلغ ثلاثة مخطوطات كاملة أحدها فى أربعة أجزاء. هذا الأخير عبارة عن تجميعات من مزامير أو تراتيل تقديم الشكر والتى أشرت إليها من قبل والاثنان الآخران نسخة غير كاملة من سفر عيساياه ووثيقة الحرب وقد أشرت إليهما من قبل أيضًا. وكانت مخطوطة عيساياه هذه مهلهلة أكثر من تلك التى اشتراها كبير الأساقفة صموئيل من البدويين سالفى الذكر. وبينما الذى وصلنا هو دستة من القطع من الفصول الأولى من المخطوطة إلا أن الذى وصلنا فى حالة سليمة، ابتداءً من الفصل الأربعين حتى النهاية. لقد كانت محتويات مخطوطة الحرب ذات جاذبية خاصة للبروفيسور سوكنيك فى وقت كانت القوات العربية تحتل القدس وربما كان هو الذى أعطاها عنوان «حرب أطفال النور مع أطفال الظلام».

كل هذه التطورات وقعت فى الوقت الذى كان مستقبل فلسطين يتأرجح فى الميزان بين اليهود والعرب. وحيث كانت حكومة الانتداب البريطانية فى مطالع ١٩٤٧ تحاول جاهدة منع اللاجئين والمهاجرين من أوربا وغيرها من دخول واستيطان فلسطين. وقد رد اليهود على محاولة الإنجليز هذه بتنظيم عصابات إرهابية والقيام بنشاطات عدوانية، استدعت الرد العنيف عليها من جانب القوات العسكرية البريطانية. وكان التوتر والعنف يتصاعد من جانب القسمين العربى واليهودى فى القدس العاصمة وما حولها، مما جعل من الخطورة بمكان العبور من أحد الشطرين إلى الآخر أو حتى القيام برحلة خارج المدينة كتلك الرحلة التى قام بها سوكنيك إلى بيت لحم. وفى التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٤٧ صوتت الأمم المتحدة لصالح تقسيم فلسطين، مما زاد التوتر أيضًا بين اليهود والعرب فى كل الأراضى الفلسطينية واندفع القتال الداخلى. وفى ظل هذه الظروف وحيث العداء أصبح علنيًا، استطاع سوكنيك أن يحصل على مزيد من المخطوطات من البدويين العربيين اللذين اكتشفاها.

وحتى ذلك الحين لم يكن سوكنيك يعلم بوجود المخطوطات الخمس الأخرى

التى إبتاعها الدير السورى من نفس الدلال. وقد تدخل أحد الدلالين السوريين بنية تأمين مخطوطات الدير السورى وبيعها إلى البروفيسور سوكنيك؛ ورغم أنه فشل فى إتمام الصفقة إلا أنه نجح فى تمكين سوكنيك من استعادة أحدها لبضعة ايام؛ وفى خلال تلك الأيام نسخ عدة أعمدة من مخطوطة عيساياه، تلك المخطوطة التى حاول من قبل أن يشتريها. وفى السادس من فبراير ١٩٤٨م أعار سوكنيك المخطوطة التى استعارها إلى الدير السورى.

ورغم توتر الموقف السياسى فى فلسطين إلا أن كبير الأساقفة صموئيل استمر فى مساعيه للحصول على رأى علمى فى أهمية وقيمة وقدم المخطوطات التى فى حوزته؛ وأخيرًا دلَّه أحد رهبانه (الأب بطرس سوماى) على صديق قديم له فى (مدرسة البحوث الشرقية الأمريكية) فى القدس؛ وسمح له بزيارة المدرسة لشرح قضيته. وفى غياب مدير المدرسة قال سوماى للمدير المناوب (الدكتور ج. سى. تريفير) أن هذه المخطوطات قد عثر عليها فى أرشيف الدير، ولكنه بعد ذلك أفضى بحقيقة المصدر الحقيقى للمخطوطات. وعندما فحص تريفير المخطوطات وقارنها بالخطوط القديمة فى (بردية ناش) أصبح على يقين تام وقناعة لا يقاربها الشك بأن المخطوطات كانت فعلًا قديمة جدًا. وقد نسخ قطعة من نص لفافة عيساياه وعندما امتلأ بالرضا التام عن طبيعة النص قام بزيارة الدير دونما تأخير واستأذن كبير الأساقفة صموئيل فى أخذ المخطوطات إلى المدرسة الأمريكية لتصويرها هناك.

ومن نوافل القول أن القتال الدائر فى القدس أخَّر هذه العملية لبعض الوقت ولكن بعدما أصبح الطبع ممكنًا من لفافة عيساياه تم إرسالها بالبريد الجوى إلى البروفيسور و.ف. أولبرايت أستاذ أثريات الكتاب المقدس البارز فى جامعة جون هوبكنز فى بالتيمور. وبعد فحص النسخ الفوتوغرافية التى تلقاها أولبرايت، كتب أولبرايت ردًا على تريفير يقول فيه:

«تهانى القلبية على أعظم كشف مخطوطات فى العصر الحديث. ليس فى عقلى أدنى شك فى أن الخط هو أقدم كثيرًا من خط بردية ناش؛ وإنى لأرجح تاريخًا للخط

حول سنة ١٠٠ ق.م.... إنه لكشف لا يصدق على الإطلاق. وليس هناك لحسن الحظ أدنى شك فى العالم حول أصالة المخطوط...».

وعندما عاد الدكتور ميللر بورروز - مدير المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية - من زيارته للعراق فى الثامن والعشرين من فبراير ١٩٤٨ وفحص المخطوطات قدر قيمة الكشف. وكان كبير الأساقفة صموئيل بعد كل ذلك قد اطمأن تمامًا لأهمية ما لديه من مخطوطات واتخذ المخطوطات اللازمة لحماية هذا الكنز وفى خلال أيام قليلة كانت المخطوطات قد طارت خارج البلاد.

فى إصدارة مايو ١٩٤٨ نشرت مجلة (أثرى الكتاب المقدس) أخبار هذا الكشف وحملتها إلى عالم البحث العلمى، مما خلق حرجًا شديد أو مشكلة معقدة لمدير مصلحة الآثار الأردنية السيد/ ج. ل. هاردنج سالف الذكر الذى لم يكن حتى ذلك الوقت يعلم بوجود المخطوطات؛ وكان قد تم تعيينه مسئولًا عن الاكتشافات الأثرية عبر الأردن وفلسطين العربية؛ ومن واقع هذه المسئولية كان عليه أيضًا يفحص مواقع ومصادر القطع الأثرية فى المنطقة التى يشرف عليها. والأخطر من كل هذا أنه طبقًا للقانون الأردنى فإن كل الاكتشافات الأثرية تكون ملكًا للحكومة الأردنية. ومن هنا فإن تصدير المخطوطات بدون إذن من الحكومة الأردنية (مصلحة الآثار الأردنية) اعتبر خرقًا للقانون الأردنى. وكان من سوء حظ سوكنيك وكبير الأساقفة صموئيل وسلطات المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية أن أيًّا منهم كان على علم بضرورة إخطار السلطات الأردنية بطبيعة هذا الكشف. وهذا الأمر أيضًا وضع هاردنج فى وضع صعب، ذلك أنه بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى فإنه كان من المستحيل وضع الموقع الأثرى الأصلى وفحصه تحت الإشراف المناسب.

ومن الناحية الأخرى كان الموقف السياسى فى فلسطين يتدهور بشدة وبسرعة، وغدا شديد الحدة والخطورة عندما أنهت القوات البريطانية انتدابها منتصف ليلة ١٤ مايو ١٩٤٨. وكانت القوات البريطانية التى عانت كثيرًا فى فترة الحكم الانتدابى قد انسحبت من فلسطين فى الوقت المحدد؛ وكان هذا التحول قد أعقبه

قتال مرير بين اليهود والعرب. وقد طوق العرب مدينة القدس القديمة وتسببوا فى دمار شديد للدير السورى. وعلى أية حال كانت مخطوطات البحر الميت قد استقرت آنذاك فى الولايات المتحدة؛ وسلمت بذلك من دائرة الصراع. وكان كبير الأساقفة صموئيل قد وافق لإدارة المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية فى كل من القدس وبغداد على نشر محتويات اللفافات فى غضون ثلاث سنوات من تاريخ الموافقة (١٩٤٩) وذلك على اعتقاد من صموئيل أن هذا الإجراء سوف يزيد من ثمن اللفافات؛ ولكن حدث العكس تمامًا؛ ذلك أنه طالما نشرت محتويات الوثائق وأصبحت علنية عامة فقد تناقصت قيمة النص الأصلى وخفت حدة الطلب عليه، رغم ارتفاع عروض القيمة المالية عليه فى بعض الأوساط.

لقد نشرت مثليات ثلاث مخطوطات من مخطوطات البحر الميت فى نيوهافن بسرعة ودقة متناهية وكشفت عن أن المخطوطات الخمس التى وقعت فى حوزة الدير السورى كانت تضم فقط أربعة مخطوطات كاملة لأن المخطوطة الأخرى التى كانت تتعلق بقواعد وتعليمات الحياة فى مجتمع الكهوف، مجتمع الطائفة الدينية كانت مشطورة فى نصفين ومن ثم يعتبران مخطوطة واحدة. وكانت اللفافة الباقية التى لم تنشر قد استعصت تمامًا على الفك فى ذلك الوقت ولم يعد فكها ممكنًا إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ. وقد أصر كبير الأساقفة صموئيل على استعادة سيطرته على المخطوطات.

وبينما كان الباحثون الأمريكيون منهمكين فى نشر محتويات ما لديهم من مخطوطات كانت السلطات الأردنية مصرة على استعادة هذه المواد التى لا تقدر بثمن. وقد بذل هاردنج نفسه جهودًا مضنية وشكل فريق بحث لمعرفة المكان المحدد لكهف هذه المخطوطات ولم يتلق المساعدة المطلوبة لا من الدير ولا من المدرسة الأمريكية وكان محمد الديب وصاحبه قد خرجا من الصورة تمامًا. وكانت الحكومة الأردنية قد أمدته بفرقة من الجنود الأردنيين قامت معه بمسح المنطقة غرب البحر الميت حتى عثروا على الموقع الأصلى للكهف بالقرب من وادى قمران. وكان وجود الفخار فى الكهف الأول الذى تم فحصه بدقة مشجعًا للرجل على

القيام بفحص أثرى دقيق للموقع رغم الضغوط السياسية الشديدة. وبعد أسبوعين من إعادة كشف الكهف الأول، بدأ التنقيب المنظم فى الموقع مع الخامس عشر من فبراير ١٩٤٩.

وقد تشكل فريق من المسئولين من جهات معنية مختلفة لمسح المنطقة مسحًا أثريًا دقيقًا أذكر من هذا الفريق السيد/ هاردنج سابق الذكر والأب دى فوكس من مدرسة دراسات الكتاب المقدس سابقة الذكر والكابتن فيليب ليبنز وهو بلجيكى مراقب من الأمم المتحدة والسيد/ جوزيف سعد من متحف الآثار الفلسطينى فى القدس. وكان هذا الفريق مسئولًا عن العمل فى وادى قمران وقد دهشوا لوجود كمية كبيرة من قطع الرقوق وقماش الكتان للف وقد سلبت المخطوطات منها، كما وجدوا قطعًا من الفخار المكسور وكان واضحًا أنها لجرار ضمت اللفافات المنهوبة الأصلية وقد بات واضحًا لفريق الأثريين هذا أنه قد سبقهم فى البحث والتنقيب فى هذا المكان باحثون متمكنون لم يتركوا خلفهم أثرًا يدل عليهم وعلى نشاطاتهم وقد قدر عدد الجرار فى هذا الكهف بنحو خمسين جرة فخارية مما يعنى أن مخطوطات أخرى قد سلبت من هذا الكهف بطريقة غير شرعية وربما يكون ذلك قد تم على أيدى رجال القبائل البدوية الموجودة فى المنطقة وكان ذلك فى نهاية ١٩٤٨.

وبينما مر وقت كافٍ بين نهب الموقع وتشكيل البعثة الرسمية فى فبراير ١٩٤٩ كانت هناك صعوبات بالغة فى استعادة كل القطع التى نهبها البدو؛ وقد أصبح البدو الآن على وعى تام بالقيمة المالية التى تدرها عليهم القطع التى فى أيديهم والتى يمكن الحصول عليها مستقبلًا. وفى نهاية الأمر كانت هناك مبالغ مالية كبيرة تدور بين أيدى رجال القبائل قبل أن تضع السلطات الشرعية يدها على الجانب الأكبر من القطع. وبعد تقصٍ شديد استطاع سعد وهاردنج أن يضعا أيديهما على رجال القبائل التى قامت بالاشتراك فى التنقيب والحفريات غير القانونية. وعن طريقهم عرفا القصة الكاملة للاكتشاف الأصلى. وفى نفس الوقت اكتسبا ثقتهم ودفعا مبالغ قيمة لهم.

وكانت محصلة التنقيب والحفريات فى كهف قمران الأول ستمائة قطعة مخطوطة

تمثل أعمالًا فكرية مختلفة. وكانت قطع البردى والجلود التى وجدت على أرض الكهف تتناسب مع قطع الكتان فى نفس الكهف مما يؤكد الرواية التى قال بها محمد الديب بدوى قبيلة طعم الريح من أن المخطوطات كانت ملفوفة فى قماش عندما عثروا عليها أول مرة. وبمزيد من الفحص والاختبار أصبح هناك يقين بأن مادة اللف هذه كانت كتانًا فلسطينيًّا وطنيا محليًّا. وقد تم تأريخ قطع الفخار التى وجدت بكثرة فى الموقع بالقرن الأول قبل الميلاد. وعندما تم تجميع قطع الفخار المتناظرة لتكون جرة كاملة كونت أوعية أسطوانية الشكل ارتفاعها ٢٦ بوصة (٦٥سم) وقطرها ١٠ بوصات (٢٥سم) . وكانت هناك أوعية صغيرة على هيئة سلطانية تستخدم لتغطية فوهات الجرار الكبيرة. ويرى الأثريون أن هذا الشكل من أشكال الجرار هو النمط الهلليني؛ وكما أسلفت فى مقدمة هذا الفصل أغل الكهف رقم ١ الذى نحن بصدده أجزاء لمبتين وإناء طهى ترجع إلى العصر الرومانى أو بمعنى أدق فترة الاحتلال الرومانى.

وكانت قطع المخطوطات التى وجدت فى هذا الكهف تمثل تقريبًا كل سفر من أسفار العهد القديم مما يعزز الرأى الذى ذهبت إليه من أن كهوف البحر الميت لم تكن مجرد مكتبة وإنما أيضًا كانت جنيزا؛ كما ثبت أيضًا أن بعضها كان قطعًا من المخطوطات التى أخذت من الكهف سنة ١٩٤٧. مما تأكد معه أن هذا الكهف هو المكان المحقق للمخطوطات المنهوبة ويؤكد فى نفس الوقت قدم الجانب الأكبر من المخطوطات نفسها. ولقد كان من بين القطع التى أغلها هذا الكهف: أجزاء من أسفار موسى الخمسة، شروح وتفاسير على بعض أسفار العهد القديم، قطع صغيرة من كتب الشريعة اليهودية مكتوبة بالآرامية. وينظر الثقاة إلى هذه القطع على أنها من أمتع ما قدمه هذا الكهف من المخطوطات ثم العثور عليها بجهود مضنية. والقطع التى تحمل أجزاء من ليفيتيكوس (١٩-٢٢) والتى تمثل قسمًا من مجموعة قطع أسفار موسى الخمسة كتبت بخط: باليو - عبرى أو ما يسمى بالحرف الفينيقى مما يأخذه بعض الباحثين دليلًا على قدم تلك القطع. وثمة قطع صغيرة من مخطوطة سفر عيساياه والتى تم اكتشافها فى الكهف الأول تضاهى المخطوطة الناقصة غير

الكاملة من سفر عيساياه والتى أمنها البروفيسور سوكنيك للجامعة العبرية سنة ١٩٤٧ على ما أسلفت. أما الأعمال خارج الكتاب المقدس فإنها تضم قطعًا من (عهد ليفى، سفر نوح، سفر اليوبيل، إلى جانب مجموعة من التراتيل وتعاليم الحياة فى المجتمع).

وقد أثار موقع الكهف الأول بالضرورة فى أذهان الأثريين إمكانية وجود صلة أو علاقة ببعض الأطلال التى عرفت طويلًا باسم (خرْبة [خرابة] قمران) التى كانت تقع على هضبة صخرية شمال وادى قمران. وتذكر المصادر أنه فى بداية الحقبة المسيحية كان هناك مجتمع ديرى مزدهر هناك فى هذا المكان (بين ١١٠ ق م ـ ٦٨م) على الرغم من أن هذا الموقع كان مأهولًا قبل ذلك التاريخ وبعده. ولقد قام الفريق الأثرى الرسمى المذكور بعمليات استطلاع مبدئية سنة ١٩٤٩ ولكنها لم تسفر عن شيء ملموس. ولم تحدث عمليات استطلاع أخرى إلا بعد عامين وكانت هذه المرة حفريات وتنقيبات واسعة النطاق، أسفرت عن اكتشاف قطع فنية ومصنعات من نوع شبيه بتلك التى وجدت فى كهوف البحر الميت. وكانت تلك الاكتشافات قد شجعت بالضرورة على القيام باستقصاءات وتنقيبات أكثر عمقًا واتساعًا فى الموقع وأدت إلى نتائج مذهلة.

ولقد كان الاستقبال الحافل والحار الذى استقبل به مجتمع البحث العالمى مخطوطات الكهف الأول فى وادى قمران دافعًا للمجتمع البدوى المحلى أن يواصلوا البحث والتقصى حول المزيد من الاكتشافات فى المنطقة التى جاءت منها المخطوطات الأولى الأصلية. وكان الدافع الأصلى لحمى البحث عن مزيد من المخطوطات هى المبالغ الكبيرة من المال التى كانت قد دفعت بالفعل لزملائهم البدو مقابل ما قدموه من مخطوطات ثمينة للسلطة. وعلى الرغم من أن رجال القبائل أنفسهم لم يكن لديهم أدنى فكرة عن الخطوط القديمة التى كتبت بها تلك المخطوطات، ولا عن قيمتها بالنسبة لمجتمع البحث؛ إلا أنهم كانوا يدركون تمامًا أنهم لو وجدوا مخطوطات أخرى فى الكهوف المختلفة فإن مكافآت مالية سخية ستكون فى انتظارهم أيضًا. لقد كان هناك كثير من الأفراد يعتقدون أن كهف وادى

قمران الأول هذا كان الوحيد من نوعه. ولكن عقل قبيلة طعم الربح العملى بدأ فى مسح مجارى المياه التى جفت فى وادى قمران واكتشف بطريقة منظمة الكهوف العديدة التى زخرفت وجه الهضبة الصخرية مثل كيزان العسل. وفى موسم العمل الأثرى وبعد جهد شاق دؤوب بدأ الرجال يحصدون مكافآتهم؛ وفى أكتوبر ١٩٥١ زار بعض البدو جوزيف سعد فى القدس وقدموا له البشارة: قطعة من مخطوط وجزءا من صندل جلد.

وعندما سأل هاردنج ودى فوكس الرجال عن مصدر هذه القطع قال البدو إنها من كهف يبعد نحو ١١ ميلًا جنوب الكهف الأول. وهذا الموقع الجديد هو (وادى المربعات). وعندما تم فحص الوجه الصخرى الرأس بعناية تم اكتشاف أربعة كهوف بالقرب من قمة الهضبة. وبعد ثلاثة أشهر من زيارة البدو لجوزيف سعد تم تشكيل فريق عمل رسمى وسار إلى وادى المربعات للقيام بدراسة ضافية وفحص متأنٍ للكهوف. وعندما وصل الفريق وجدوا أربعة وثلاثين بدويًا يعملون بجد وبدوافع شخصية بحتة فى التنقيب والحفر الشاق. وقد تم فى الحال توظيف بعضهم فى المشروع وتحت الإشراف الرسمى طالما أن تأمين العمل السليم ونقل المستلزمات كان يمثل فى حقيقة الأمر مشكلة حقيقية.

لقد كانت الكهوف تخترق وجه التل لمسافة بعيدة، وكانت فوهاتها مرتفعة جدًا عن حائط الوادى وكان الممر إلى أرضية الكهوف ضيقًا محدودًا والتى كانت تضرب بعمق فى قلب الجبل مما كان يمثل خطرًا حقيقيًا على المنقبين غير المدربين أضف إلى ذلك المتاعب التى كان بسببها الغبار والتراب الذى تراكم عبر القرون بكثافة شديدة وغطى تلك الكهوف والخطر الحقيقى الذى كان يمثله الحالة غير الآمنة لسقوف الكهف الأول والثانى من هذه الكهوف الأربعة، ذلك أن تآكل الصخور عبر الزمن أضعف السقوف وتسبب فى سقوط بعض الصخور مما جعل إمكانية سقوط السقف كله واردة.

ولقد كشف الفحص المتأنى للكهوف الأربعة فى ظروف شديدة الخطورة عن وجود خمس فترات من إعمار البشر لها وسكناهم فيها تبدأ أولاها: بالعصر الحجرى

الطباشيرى (٤٥٠٠ ق.م - ٣٠٠٠ ق.م تقريبًا) واستمروا حتى منتصف العصر البرونزى (١٧٠٠ - ١٥٥٠ ق.م)، القرنان الثامن والسابع قبل الميلاد ثم الحقبة الرومانية واختتمت بالاحتلال العربى. وكانت هناك قطع وأوانٍ وبقايا من العصر الحجرى الطباشيرى قد تم اكتشافها فى الكهوف الأربعة. ولعل أهم قطعة تم اكتشافها من ذاك العصر جاءت من الكهف الأول من الأربعة وتمثلت فى يد فأس adze خشبية ملمعة بعناية وجمال ومربوطة بخيوط أو سيور جلدية لتأمين الحد وتثبيته. وقد تم اكتشاف قطع ومصنعات من العصر البرونزى فى الكهف الثانى كما وجد به جعران مصرى من أصل هكسوسى. وقد أغلت الكهوف الثلاثة الأول آثارًا من العصر الحديدى ترجع إلى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ومن نفس هذه الفترة ورق بردى طرس مكتوب بالحرف الفينيقى تم العثور عليه هنا. وهذه الوثيقة البردية هى نتاج أصيل لتلك الفترة وذات أهمية غير مسبوقة.

ومهما يكن من أمر فإن أكثر المواد إمتاعًا وأهمية جاءت من الفترة الرومانية وترسبت تلقائيًا فى الكهفين الأول والثانى بين الكهوف الأربعة: قطع فخارية، أشياء معدنية وخشبية، جلود ومنسوجات فى حالة جيدة. كما عثر على عدد من العملات المعدنية ترجع إلى فترة الثورة اليهودية الثانية (١٣٢ - ١٣٥م) مما ساعد على تأريخ فترة شغل المكان بدقة. ومن الطريف أن بعض القطع الفخارية التى عثر عليها هنا كانت عليها كتابات منقوشة بالعبرية واليونانية وإلى جانب هذه المواد كانت هناك قطعتان من البردى اليونانى تحملان نصوصًا أدبية ولكن فى حالة هشة. وأكثر من هذا كانت هناك بعض البرديات المكتوبة بالعبرية ولكن أيضًا فى حالة هشة أمكن تأريخها بالقرن الثانى الميلادى. وكانت هذه البرديات موجهة إلى شخص يدعى جوشوا بن جالجولا والذى يفهم من السياق أنه كان يشغل وظيفة عسكرية فى وادى المربعات وكان الراسل يدعى سيمون بار - كوخبا. وكان هذا الأخير يقود هجمات الفدائيين ضد قوات الرومان المحتلين بين ١٣٢ و١٣٥م؛ ويبدو أن تلك الخطابات كانت توجه منه إلى القادة الذين يعملون تحت إمرته.

فى مارس ١٩٥٢م بدأت بعثة صغيرة يقودها الأب دى فوكس المشار إليه سابقًا

والدكتور د. ل. ريد من المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية فى القدس فى التنقيب والبحث المنظم فى الأرض القاحلة فى مناطق وادى قمران على أمل العثور على مزيد من الوثائق القديمة. وكان الأثريون محظوظين فى العثور على كهف ثانٍ جنوبًا بعض الشيء من الكهف الأول الأصلى، ثم العثور على كهف ثالث شمال الكهف الأصلى (بخلاف الأربعة كهوف فى وادى المربعات). وأخيرًا زالت الصعوبات التى واجهت البعثة ووجدت بقايا المخطوطات التى كانت تحلم بها وحيث بذلت الحملة أكثر من ٢٠٠ محاولة بين التلال والوديان فى منطقة موحشة من «حجر العصبة» حتى رأس فشكا والتى تبلغ المسافة بينهما نحو ستة أميال.

لقد أغل نحو أربعين موقعًا سواء كهوفًا أو أطلالًا قطعًا من الفخار شبيهة بتلك التى وجدت فى خربة قمران. ولم تكن كل تلك المواقع التى تم كشفها مؤهلة بها فيه الكفاية للسكنى البشرية؛ وتبدو غالبيتها أنها كانت فقط تستخدم لأغراض التخزين أو الطهى على نحو ما وشت به قطع اللمبات وأدوات الطهى والجرار التى عثر عليها فى المكان. وبينما عثر على قطع فخار التخزين المكسورة فى قمران لم يكن هناك أى أثر للعملات المعدنية.

وكان البدو قد سبقوا هذه البعثة واكتشفوا بعض قطع من المخطوطات وباعوها بالفعل للسلطات الأردنية، تلك القطع التى اكتشفوها من الكهف الثانى هنا. وتذكر المصادر بسخرية شديدة أن الأهالى قاموا بعملهم بدقة وجدية بحيث لم يتركوا للبعثة شيئًا تكتشفه سوى قطعتين فقط من المخطوطات فى الموقع. ومن بين الكتابات المقدسة الكثيرة التى كانت ذات يوم مودعة فى هذا الكهف لم تصلنا إلا قطع صغيرة من أسفار موسى، والمزامير ونبوة جيرمياه. ويرى الثقاة أنه كانت هناك نحو أربعين قطعة من الأعمال التى تدور حول الكتاب المقدس موجودة فى الموقع.

وقد تم التعرف على الكهف الثالث عن طريق الصخور الضخمة التى كانت تسد فوهة ذلك الكهف. وكانت الشواهد تدل على أن سطح الكهف قد تداعى فى فترة سابقة مبكرة ربما بسبب هزات أرضية مما تسبب فى إغلاق المدخل بإحكام مما أدى إلى حماية غير مقصودة لما عساه احتواه من رقوق، ورغم ذلك لم يغل هذا

الكهف إلا كمية قليلة من قطع المخطوطات تمثل نحو دستة مخطوطات مختلفة. ولعل أهم وأجمل ما قدمه هذا الكهف وأكثرها إثارة لفافتين من النحاس كانتا موضوعتين بالقرب من المدخل وقد تمت حمايتهما صدفة بعد تعامد الصخور المتساقطة عليهما. ورغم تأكسد شرائح النحاس الملفوفة عبر القرون إلا أنهما نجيتا من عوامل التلف الأخرى. وبسبب الجهد المضنى الذى بذل فى فض طى هاتين اللفافتين دون المساس بالمحتويات، جرت سلسلة من الاختبارات المعدنية فى الولايات المتحدة وبريطانيا لاختيار أنجع السبل فى فض طى النحاس الأحمر المتأكسد. وفى مطالع سنة ١٩٥٦ عولجت اللفافتان معالجة خاصة وقطعتا إلى شرائح فى كلية التكنولوجيا فى مانشستر ولحسن الحظ أنه لم يتم تدمير إلا أقل من ٥٪ من النص خلال تلك العملية الفنية وعندما تمت ترجمة اللفافتين اتضح أنهما تحويان معلومات عن مواقع كنوز مخبوءة.

وكانت الثقة التى أولاها ج. ل. هاردنج لرجال القبائل البدو قد أسفرت فعلًا عن تدفق سيل منتظم من قطع المخطوطات إلى المتحف فى القدس طوال سنة ١٩٥٢. وفى يولية من نفس سنة ١٩٥٢م اكتشف الأعراب البدو المتحمسون حزمة من المخطوطات من منطقة غرب البحر الميت عجزت كل الجهود الرسمية إلى اليوم عن تحديدها بالضبط. وقد أثبتت الوثائق التى تم اكتشافها هناك أنها ذات صلة وثيقة بتلك التى وجدت فى وادى المربعات، وكانت فى الأعم الأغلب عبارة عن برديات نبطية ويهودية تتعلق بمسائل تجارية؛ وإن كان من بين الوثائق التى جلبت من هذه المنطقة عدة أسفار من الكتاب المقدس وكثير من الجنيزات والعديد من مزامير داود. ولعل من أكثر القطع إثارة نص مجزوء من سفر الأنبياء الأصاغر مكتوب على جلد بخط الأونسيال اليونانى وتؤرخ بنهاية القرن الأول الميلادى. كما تضمنت نفس هذه اللفافة أجزاء من نصوص أسفار ميكاه، جوناه، ناحوم، حبقوق، زيفانياه، زكرياه. وكان من بين ما أغلته تلك المنطقة وثيقتان مكتوبتان باليونانية والآرامية أمكن تأريخهما بما يعد ١٠٦م. وقد قا[illegible]دو فى مرحلة تالية باكتشاف لفافة تضم سفر الأنبياء الأصاغر مك[illegible] عبرية جاءوا بها من المنطقة

العامة بوادى المربعات. هذا المخطوط الذى يبدو أنه كتب فى القرن الثانى الميلادى يتكون من نبوات العهد القديم من منتصف سفر جويل حتى نهاية سفر زيفانياه وينطبق تمامًا مع النص المازورى المعيارى التقليدى.

وخلال شهر أغسطس ١٩٥٢م شق عدد هائل من قطع المخطوطات طريقه على أيدى المنقبين الجادين وذلك قبل الكشف عن وجود كهف جديد للمخطوطات موجود فى أطلال وسط مجتمع خربة قمران، وهو فى رأيى المكتبة الكبرى أو الحقيقية لهذا المجتمع. وبمجرد علم السلطات الأردنية بهذا الكشف سارعت ووضعت يدها عليه وقد أغل هذا الكهف الجديد آلافًا من قطع المخطوطات تمثل دائرة واسعة من الأعمال الفكرية الأدبية؛ وقد بذلت السلطات الأردنية جهد الطاقة فى ملاحقة المؤسسات العلمية فى جميع أنحاء العالم لتقديم العون المالى لشراء ما طالته أيادى البدو الأعراب من مخطوطات. وقد جاءت مساعدات سخية من أنحاء مختلفة مكنت من استرداد الكثير من المخطوطات من العرب البدو واكتشاف مخطوطات أخرى. وفى نفس الوقت بدأت دراسة تلك المخطوطات من قبل الباحثين فى متحف فلسطين بالقدس.

وقد كشفت الدراسات المبدئية أن هذه القطع تمثل يقينًا ٣٠٠ عمل فكرى على الأقل. وإلى جانب سفر إيثر كانت هناك كل كتابات وأسفار العهد القديم. وعلى الرغم من أن كتب الشريعة كانت جميعها ممثلة فى القطع، إلا أنها كانت قطعًا صغيرة على نحو ما وصلتنا عليه قطع من سفر عيساياه. ومن بين الكنوز التى أغلها هذا الكهف الرابع من كهوف البحر الميت أسفار ذات موضوعات غير شرعية قانونية مثل: سفر إينوخ، عهد ليفى إلى جانب التراتيل والترانيم والشروح والتفاسير ولوائح الطائفة وغير ذلك من الوثائق.

ومع إتمام اكتشاف الكهف الرابع فى نهاية سبتمبر ١٩٥٢ تعالت صيحات قريبة معلنة الكشف عن كهف خامس ضم قطعًا كثيرة من مخطوطات قديمة. وفى نفس الوقت كان البدو قد اكتشفوا كهفًا آخر فى الوادى. هذا الكهف أثبت أنه بالغ الأهمية حيث ضم قطعًا من مخطوطات ذات صلة بمخطوط يهودى قديم؛ وقد تم

تأريخ تلك القطع بالفترة ما بين القرن العاشر والقرن الثانى عشر. هذا العمل كان يشار إليه من حين لآخر باسم (وثيقة زاتوكيت) تم اكتشافه فى جنيزة سيناجوج القاهرة؛ ونشر سنة ١٩١٠.

ولقد أضافت الأنشطة الأثرية وأعمال التنقيب التى جرت فى ربيع ١٩٥٥م أربعة كهوف أخرى على العدد الأصلى من الكهوف. ومن سوء الحظ أن المخطوطات التى عثر عليها هنا كانت فى حالة بالغة السوء؛ وتطلبت مجهودات كبيرة لترميمها وتقييمها. وفى كلمته إلى الاجتماع السنوى لصندوق الاكتشافات الفلسطينى سنة ١٩٥٧ ألمح ج.ل. هاردنج إلى كشف البدو عن الكهف الحادى عشر فى مطلع ١٩٥٦ وأغل عدة مخطوطات فى حالة ممتازة من الحفظ على الرغم من أنها لم تكن محفوظة فى جرار مغلقة وكان الكهف المشار إليه يقع شمال الكهف الأصلى الأول فى قمران فوق تل صخرى.

وكان من بين ما أغله هذا الكهف نسخة تالفة بعض الشيء من المزامير ولكنها منسوخة بعناية شديدة وملفوفة بدقة، كما كانت هناك نسختان من سفر دانييل فى حالة جيدة. وهى تكمل قطعًا أخرى من نفس السفر عثر عليها فى كهوف أخرى فى قمران. وكان هناك كذلك جزء من سفر ليفيتيكوس مكتوب بخط عبرى قديم يقع فى لفافة صغيرة.

وفى يولية ١٩٥٢ تم كشف مخطوطات أخرى ربما كانت أقل أهمية من تلك التى تم اكتشافها فى وادى قمران أو وادى المربعات ولكنها كانت ذات جاذبية خاصة؛ ذلك أنه فى أطلال أحد الأديرة التى تقع على بعد سبعة أو ثمانية أميال شمال شرق بيت لحم فى موقع يعرف باسم (خربة مِرْد) ربما فى منتصف الطريق بين وادى قمران ووادى المربعات، تم الكشف عن عدد من المخطوطات الهامة للغاية، وإن كانت متأخرة فى تاريخها عن تلك التى اكتشفت فى المواقع الأخرى وجرى تأريخها بين القرن الخامس والقرن التاسع للميلاد. هذه المخطوطات ضمت فيما ضمت خطابات ورسائل مكتوبة بالآرامية والعربية إلى جانب أجزاء من مؤلفات أحد المؤلفين الإغريق الكلاسيكيين. وكان هناك أيضًا عدد من قطع الكتاب المقدس من

أصل مسيحى كتبت باللغتين اليونانية والسوريانية الفلسطينية. وكانت القطع المكتوبة باليونانية تضم أجزاء من (سفر الحكمة) مكتوبة بخط الأونسيال اليونانى، وأيضًا الإنجيلين الثانى والرابع وكتاب الأفعال. أما القطع المكتوبة بالسوريانية فقد ضمت فيما ضمت بعض الطروس الخاصة بنسخ من الأناجيل ولكنها فى حالة رثة، كذلك ضمت أجزاء من سفر جوشوا. وقد تم تشكيل فريق رسمى من المنقبين الذين مسحوا الموقع فى الشهور الأولى من سنة ١٩٥٣ وحالفهم الحظ فى اكتشاف قطع مخطوطة أخرى مكتوبة باليونانية والعربية والآرامية.

وبسبب العدد الكبير من الكهوف التى تم التنقيب فيها والتى أغلت مخطوطات كاملة وقطعًا مخطوطة من أنواع مختلفة كان من الضرورى لتسهيل الإشارة إلى أى منها أن ترقم تلك الكهوف وتسجل فى قائمة معيارية. ونتيجة لتلك الحتمية أعطيت لكهوف قمران أرقام متبوعة بحرف Q الكبير لتحديد الموقع موضع الحديث؛ وهكذا فإن 3Q إنما يشير إلى الكهف الثالث فى كهوف قمران والذى تم اكتشافه على يد الأثريين والذى جاءت منه لفافات النحاس الأحمر الشهيرة. وكانت كهوف وادى المربعات قد رقمت أيضًا وبعد الرقم الحرفان Mu.

وبينما كانت الحفريات والتنقيبات الرسمية تجرى على قدم وساق فى منطقة قمران فى ربيع سنة ١٩٤٠م انجذب هاردنج ودى فوكس إلى أطلال كانت موجودة فوق هضبة صخرية تبعد عن كهف قمران ١ ـ 1Q بنحو ميل جنوبًا وربما نفس المسافة من البحر الميت وكان هدفهما من ذلك هو ربط أو كشف الصلة بين المخطوطات المكتشفة بقرائن حول وجود سكان معاصرين فى تلك المنطقة. ولكن بعد الدراسات المبدئية القليلة التى قاما بها لم يخرجا بنتائج إيجابية مما جعلهما يؤجلان بحثهما حتى تطرح الفرصة نفسها عليهما.

ولم يجر المزيد من التنقيب فى الأطلال والخرائب ربما حتى نهاية ١٩٥١ حين تم تشكيل فريق من الأثريين يمثل (مدرسة دراسات الكتاب المقدس) و(مصلحة الآثار بالأردن) و(متحف الآثار الفلسطينى)، لمسح وفحص الموقع بطريقة منهجية منظمة. وكانت الخربة أو الأطلال المذكورة تقع على رف من الصخر فى منتصف

الطريق بين البحر الميت شرقًا ووادى قمران جنوبًا؛ وكان يطلق عليها (خربة قمران).

وكان بعض الرحالة الأوربيين قد لاحظ وجود هذه الأطلال، وفى أحد التقارير الباكرة فى القرن التاسع عشر وصف الموقع وسماه (جوموراه الكتاب المقدس). وفى سنة ١٨٧٣ قام الباحث الفرنسى الشهير والمتميز كلير مونت ـ جانو بمسح الموقع ودراسته ولكن اهتمامه انصب على جبّانة كبيرة تقع إلى الشرق من الخربة وتمتد إلى الأسفل باتجاه البحر الميت وأشار إلى هذه الجبانة بأنها الملمح الأساسى فى المنطقة وبالتبعية انصب وصفه وتقريره بالتفصيل حول طبيعة المكان والمقابر بما فى ذلك تربة واحدة قام هو بنفسه بالتنقيب فيها. وكان من حسن حظ ج. دالمان فى القرن العشرين أن يكون صاحب الفصل فى وصف ومسح الخربة وصفًا دقيقًا سليمًا (١٩٢٠).

وكانت هذه الأطلال ذات أهمية خاصة فى حد ذاتها بسبب طبيعة المخطوطات التى جادت بها المنطقة بسخاء. وفى نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٥١ قام فريق الأثريين بالتنقيب فى الخطوط الرئيسية لأحد المبانى الكبرى الذى لا يمكن أن يكون سكنًا لإحدى الأسر العادية. وقد كشف التنقيب فى الغرف الثلاث الأولى فى ذلك الوقت عن أن إحداها كانت من السعة بحيث يمكن أن تكون قاعة اجتماعات بينما كانت هناك حول الجدران المتهدمة بنشات من رخام. وكان من بين الملامح الهامة فى الموقع وجود صهريج ماء كبير يتصل عبر مجارى حجرية بمستودعات ماء على امتداد المنطقة (وكل هذا كان قد جف). ولكن كان أهم اكتشاف فى ذلك المبنى هو وجود جرة سليمة، طبق الأصل فى شكلها مع تلك الجرار التى اكتشفت فى كهف قمران رقم ١. وقد ساعدت هذه المعلومات فى الربط بين المخطوطات بالناس الذين سكنوا هذا المكان فى العصور القديمة. وقد كشف التنقيب المتواصل عن وجود عيدان من البوص والغاب وألواح من الخشب المتساقطة داخل الأطلال مما يدل على أن هذه المبانى قد واجهت نهاية عنيفة مؤلمة. ومن هذه الحملة الأثرية بات واضحًا أنه كان هناك مجتمع دينى قد عاش هنا وسكن الموقع فترة من الزمن؛ وأن

أعضاءه المتوفين قد دفنوا فى الجبانة الملحقة وأن هذه الطائفة هى التى أفرزت مخطوطات كهوف قمران.

وعلى نفس القدر من الأهمية كانت النتائج التى خرجت بها عملية تنقيب ثانية قامت بها الحملة فى ربيع ١٩٥٣، وقد أتبعت تلك الحملة بحملات أخرى عام ١٩٥٤ و١٩٥٥. ولقد تم العثور على كثير من العملات المعدنية خلال الحملات المختلفة، تلك العملات قدمت قرائن مادية ساعدت الأثريين على وضع (الطائفة أو المجتمع) فى سياقها التاريخى السليم. وكما أسلفت كان من الواضح أن هذا الموقع كان مأهولًا فى عدد من الظروف والمناسبات فى العصور القديمة بدءًا من العصر الحديدى (القرنان الثامن والسابع قبل الميلاد). وكما ألمعت كانت بعض القطع الفخارية العائدة إلى تلك الفترة قد نقشت بالخط الفينيقى المعاصر. وهذا يقودنا إلى الافتراض بأنه كانت هناك بوابة حامية موجودة على رف الصخرة على أيام أوزياه جوداه (٧٨٠ ـ ٧٤٠ ق.م تقريبًا) وكانت المجموعة الأولى من العملات قد دلت بالقطع على وجود مجتمع دينى عاش فى الموقع من ١١٠ ق.م حتى ٣١ ق.م؛ حين دمر الزلزال المنطقة وأنهى وجود السكان فى الفترة الأولى من سكنى المكان. وكانت هناك فترة انتقال امتدت لثلاثين عامًا قبل أن تبدأ فترة السكنى الثانية للمنطقة على يد الطائفة الدينية والتى يرى الباحثون الثقاة أنها امتدت حتى ٦٨م حين زحف فسباسيان جنوبًا فى وادى الأردن حتى جريشو (جرش) بالقوات الغازية. وقد قاومت قوات الفدائيين المعروفة بقوات (زيلوت) ولكن الرومان احتلوا المكان من ٦٨م وحتى نهاية القرن الأول الميلادى. وتذكر المصادر الثقاة أن قوات المقاومة أو الفدائيين قد استردت المستوطنة خلال الثورة اليهودية الثانية ضد الرومان (١٣٢ ـ ١٣٥م). وكان هذا الموقع الاستراتيجى لمستوطنة المجتمع قد ساعد المقاومة اليهودية لفترة قصيرة حين اضطروا للانسحاب إلى جنوب البحر الميت. وبعد هذا الانسحاب لم تعد المستوطنة مأهولة بالسكان وفقدت أهميتها حتى منتصف القرن الثانى عشر عندما استعادت بعض مكانتها وأهميتها.

والحقيقة التى لا مراء فيها أن الفضل كل الفضل يرجع إلى العمل الشاق الذى

قام به دى فوكس وهاردنج والـذى لفت أنظار الباحثين المعاصرين إلى طبيعة المجتمع القديم الـذى عاش فى تلك المستوطنة؛ وإن كان الباحثون المعاصرون يخطئون ويصفون هذه المستوطنة بأنها دير وهى ليست كذلك والوصف غير دقيق. فى الركن الشمالى الغربى من المبنى الرئيسى فى المنطقة كان هناك برج أو قلعة حامية ضخمة كانت حوائطها بعرض أى سمك ثلاثة أقدام وكان الطابق العلوى من البرج أو القلعة يتصل بالطابق السفلى بسلم حلزونى؛ وقد سلم العمود الأوسط المركزى من عوامل التهدم؛ وكانت الغرف الثلاث العليا يتم الوصول إليها عبر باب خارجى فى الجانب الجنوبى. وكان التواصل بين غرف البدروم يتم مباشرة. ويبدو أن البرج أو القلعة قد تصدعت عقب الزلزال المدمر الذى وقع سنة ٣١ ق.م، وحدث تهدم كبير فى الحائط الشرقى والركن الجنوبى الشرقى.

وتذكر المصادر الثقاة أن المبنى الرئيسى لهذا المجتمع كانت مساحته تبلغ مائة وعشرين قدمًا مربعًا وكان يمثل أو يشكل المحور الذى تلتف حوله المبانى الأخرى. وهناك قائمة كبيرة تقع فى جنوب هذا المبنى المركزى ويبدو أنها كانت قاعة الطعام الرئيسية وحيث كان ملحقًا بها المطبخ الذى عثر فيه على بقايا تشكيلة واسعة من أوانى الطهى المنزلية تربو على ألف قطعة. ولكن إذن ماذا كان ذلك المطبخ الجماعى الذى تم اكتشافه فى الجزء الشرقى من القلعة وكانت فيه بقايا عدة مواقد نار. وفى أقصى الجانب الجنوبى العربى كان هناك أربع أو خمس غرف كانت بلا شك تمثل قاعات الاجتماعات لذلك المجتمع الدينى. وكما أشرت كانت هناك بنشات رخامية بحذاء الجدران الأربعة فى إحدى الحجرات هذه مما يوحى بأنها كانت مكانًا للتأمل الروحى أو الصلاة أو المناقشة.

لقد كانت هناك فى الطابق الأرضى فى هذا الجناح بالذات إحدى الحجرات التى يعتقد أنها كانت نفس المكان الذى نسخت فيه بعض مخطوطات قمران. والذى حمل الباحثين على هذا الاعتقاد هو أنهم وجدوا بعض قطع رخامية غريبة الشكل، عندما أعيد تركيبها بواسطة خبراء من متحف فلسطين فى القدس كونت منضدة مستطيلة ضيقة ركبت على إطار من الطوب. وقد بلغ طولها ١٧ قدمًا وترتفع عن الأرض

قدمين وأمامها كان هناك بنش صغير نسبيًا، وإلى جوارها منصة خفيضة بها منخفضات ضحلة على السطح. وقد تم استنتاج أن هذه القطع إنما تمثل بقايا الأثاث الأصلى (للمنسخ) الخاص بالجماعة. وقد تأكد هذا الاعتقاد بعد العثور فى نفس المكان على محبرتين تعودان للحقبة الرومانية إحداهما من النحاس الأصفر والأخرى من الطين الفخار. وقد استنتج بعض ثقاة الباحثين أن المنخفضات التى وجدت على سطح المنصة ربما كانت تشتمل على ماء مقدس لزوم شعائر التطهر أثناء نسخ النصوص المقدسة.

وقد كشف الأثريون فى الركن الجنوبى الشرقى من نفس ذلك المبنى المركزى عن وجود بقايا ورشة كانت فى يوم من الأيام تضم الأدوات والأعتدة التى كان يستخدمها أعضاء الجماعة الدينية فى أعمالهم. وقد وجد فى نفس المكان مرافق لإذابة الخامات وتفخير الأوانى الطينية (الفاخورة) مما يعطى الانطباع بأن المجتمع فعلًا كان مجتمع اكتفاء ذاتى. وربما كان أهم من هذا كله كانت صهاريج الماء ونظام توصيل المياه والتى كانت موجودة فى الجزء الجنوبى الشرقى من المبنى الرئيسى المركزى. وكانت هناك بقايا خزان كبير ومجرى ممتد وصهريجان محطمان وعدد من الأحواض الكبيرة تقع إلى جوار الورشة كانت كلها تشكل جزءًا من نظام معقد لخزن وصرف الماء. ويبدو أن مصدر المياه كان خزانات طبيعية فى أسفل المنحدر وتم وصل هذه الخزانات الطبيعية بالصهاريج الموجودة فى المستوطنة عبر قنوات حجرية تشق الهضبة وكانت المياه التى تحمل بهذه الطريقة يصير تفريغها فى عدة صهاريج ضخمة مفتوحة وعدد كبير من الخزانات الصغيرة. وكانت الصهاريج تحضر فى الصخر وتبطن بطبقات من الرخام. وكانت إحدى هذه البرك من الطول والعمق بحيث احتاجت إلى ١٤ درجة سلم حجرى فى أحد طرفيها حتى يسهل سحب الماء منها عند أى مستوى. ومن الطريف أن درجات السلم هذه وجدت تحتها أخاديد تمتد من مركز البركة وتستمر تحت أرضية البركة حتى تصل إلى عدة غرف وراءها. وقد دمر زلزال سنة ٣١ ق.م كل هذه المنظومة.

وكان الجزء العلوى من السلالم قد قسم إلى أربعة أقسام مستقلة منفصلة ربما

لتنظيم الولوج إلى البركة نفسها. وقد تم الكشف عن ترتيب مماثل فى صهريج كبير موجود بالقرب من الحائط الجنوبى من المبنى الرئيسى وحيث قسمت درجات السلم إلى أقسام فرعية أصغر وفصلت عن بعضها البعض بدرجة سلم أعرض. وربما يشى ذلك بأنه فى بعض الأحيان كانت بعض البرك تستخدم بصفة دورية كأماكن للتعميد وحيث كان لهذه الرسميات دور هام فى حياة تلك المجتمعات الدينية. ولو كان هذا الافتراض صحيحًا فإن طائفة قمران الدينية هذه كانت بالضرورة تضم واحدة من الجماعات الدينية الكبيرة العديدة التى عاشت فى وادى الأردن فى مطلع الحقبة المسيحية.

وأيا كان الاستخدام الدينى والشعائرى لبرك المياه هذه، إلا أن أهميتها التى لا شك فيها هى تأكيد وجود الجماعة الدينية نفسها؛ فى أرض بها مصادر أكيدة ومؤمنة لمياه الشرب لا يمكن أن يكون ذلك من فعل الطبيعة إلا نادرًا، فى أرض فيها نظام محكم واسع النطاق لتخزين وصرف المياه، هذا كله كان لحاجة حقيقية لمجتمع موجود بالفعل. وقد قدر الثقاة عدد أفراد هذا المجتمع بما لا يقل عن ٥٠٠ شخص. وطالما أن مخطوطات قمران تذكر ضرورة الاغتسال الشعائرى فى عدة مناسبات، كان من الضرورى لأعضاء الطائفة أن يكون لديهم مصدر مائى يمدهم بالكميات المطلوبة للاغتسال فى تلك المناسبات. وتدل تعقيدات نظام المياه الكامل على أن الأمر لم يقف عند حد الاغتسالات الرسمية العادية للتطهر وإنما كانت هناك احتياجات أخرى للمياه كان لا بد من مواجهتها.

لقد كانت الأوانى الفخارية التى تم كشفها فى خربة قمران حاسمة وقاطعة فى تأريخ الأحداث والوقائع ورسخت الرابطة التى لا يتسرب إليها الشك بين الطائفة الدينية وبين مخطوطات قمران. وتذكر المصادر أنه وجدت فى شمال الموقع عدد من الأوانى الفخارية وحوالى ٣٠ قطعة عملة معدنية ملفوفة فى قطعة قماش، ربما ترجع لما بعد ٣١ ق.م حين تم ترميم مركز الطائفة بعد الزلزال المدمر. وقد تم تاريخ القطع الفخارية التى عثر عليها هذه بالحقبة الهللينية وقد حملت إحدى القطع آثار حروف عبرية كتبت بخط رديء وكان من الصعوبة بمكان تمييز قطع الفخار

العائدة إلى فترتى الاستيطان الأولين للمنطقة من جانب، ربما بسبب أن أوانى من الفترة الأولى (١١٠ ـ ٣١ ق.م) استخدمت بعد ترميم المبنى فى الفترة الثانية (١ ـ ٦٨م). لقد جاءت من هذه الفترة الثانية معظم قطع السيراميك المكتشفة وكان بعضها يحمل كتابات أو نقوشًا. وعندما كشف عن القاعة الكبرى الواقعة جنوب المبنى الرئيسى خلال موسم الحفر الثالث عثر على مخزن به ألف طبق مرصوصة فى صفوف على مصاطب. وهنا أيضًا عثر على جرة أسطوانية سليمة تمامًا وبحالة جيدة وهى بنفس الشكل والنمط الذى كانت عليه الجرار التى حفظت فيها مخطوطات الكهف الأول فى قمران. أما فترة الاستيطان الثالثة (٦٨ـ١٠٠م) فقد أغلت قطعًا فخارية من نفس النوع الذى كان متداولًا بعد بداية الحقبة الرومانية.

وثمة دليل ثقة على فترات الاستيطان المختلفة نجده فى القطع المعدنية من العملات المختلفة التى كشف عنها خلال عمليات التنقيب والحفر. وقد يكون من المستغرب أنه من بين الـ ٧٥٠ قطعة عملة معدنية التى أغلتها عمليات التنقيب المختلفة لم يكن هناك قطعة واحدة جاءت من كهوف قمران. وحتى لو كانت تلك الكهوف قد استخدمت للتخزين أو حتى السكنى البشرية أو كلاهما، فإن المعاملات المالية جميعًا كانت تتم فى مكان واحد هو المبنى المركزى للمجتمع. ومن الجدير بالذكر أن هذا الموقع عندما بدأ التنقيب فيه لأول مرة سنة ١٩٥١م أغل قطعة عملة معدنية واحدة أمكن تأريخها بسنة ١٠م وقد استخدمت هذه القطعة من بين عشرات القطع فى إعطاء تواريخ أكثر دقة للفترات الاستيطانية للمنطقة وحيث يبدأ السجل فى الفترة الأولى المعروفة بالفترة الحسمونية خلال حكم جون هيركانوس (١٣٥ ـ ١٠٤ ق.م) واستمرت دون انقطاع حتى زمن ماتياس (٤٠ ـ ٣٧ ق.م) وهو آخر الحسمونيين.

لقد عثر على نحو ٦٠٠ قطعة عملة معدنية فى ثلاث حاويات فخارية سنة ١٩٥٥ فى حجرة غرب المبنى الرئيسى بعض هذه العملات تم سكه فى عهد الحاكم السلوقى أنطيوخوس السابع (١٣٩ ـ ١٢٩ ق.م). والبعض الآخر يرجع إلى أصول تريانية وآخر القطع مؤرخة بسنة ٩ ق.م. ومن الواضح أن هذه القطع كانت

مخبأة فى أطلال المركز قبل إعادة احتلال الموقع من قبل الطائفة فى مطلع القرن الأول الميلادى.

قطعة واحدة من العملات المعدنية التى عثر عليها هى التى ترجع إلى زمن هيرود الكبير (٣٧ ـ ٤ ق.م) رغم طول عهده فى الحكم وهو ما يتناقض للغرابة مع سلسلة الاكتشافات التى ترجع إلى عهد ابنه وخليفته هيرود آرخيلاوس (٤ ق.م ـ ٦ م). وهناك العديد من القطع التى عثر عليها تعود إلى فترة الحكام الرومان ليهوذا فى ظل أوغسطوس (٦ ـ ١٤م) وتبيريوس (١٤ ـ ٣٧م) وكلوديوس (٤٤ ـ ٥٤م) ونيرون (٥٤ ـ ٦٦م). وكانت هناك أيضًا ٢٣ قطعة عملة معدنية بين الموجودات تعود إلى هيرود أجريبا (٣٧ ـ ٤٤م). هذه كلها كانت ضمن هذه الموجودات وكلها تقدم سجلًا تاريخيًا متصلًا حتى زمن الثورة اليهودية الأولى (٦٦ ـ ٧٠م). وهناك عملات معدنية أخرى تعود إلى فترة ما بعد سقوط القدس سنة ٧٠م، وثمة بعض تلك القطع المعدنية نحو دستة ترجع إلى فترة الثورة اليهودية الثانية (١٣٢ ـ ١٣٥م). وقد أغلتها لنا الفترة الاستيطانية الثالثة.

ولقد كانت الجبانات الملحقة بالخربة والتى اجتذبت اهتمام الباحث كليرمونت ـ جانو سابق الذكر فى فترة سابقة محل اهتمام الأثريين خلال تنقيبهم فى خربة قمران. لقد كان عدد المقابر فى تلك الجبانات نحو ألف مقبرة مقامة فى صفوف متوازية وتمتد من الشمال إلى الجنوب. وقد استوقف ذلك كليرمونت الذى لاحظ أن مدافن المسلمين تمتد عادة من الشرق للغرب ومن ثم أرخ لتلك الجبانات بتاريخ قبل الإسلام. وعندما فتح دى فوكس بعض تلك المقابر كما فعل كليرمونت ـ جانو أنها كانت ضيقة وتنحدر فى حفر ذات عمق يصل إلى خمسة أقدام. وكانت هناك غرفة تجهيز تمتد إلى تحت أحد الجدران الطويلة وحيث يوضع الجثمان ووجهه لأعلى وعادة ما يتجه رأسه للجنوب ولم يكن فى البداية يوضع فى كفن ثم ترص حجرة المدفن بعد ذلك بالطوب أو الحجر وكانت الفتحات تسد بطريقة أو بأخرى.

وقد وجد أن السيراميك يستخدم لسد ثغرات المقابر على نحو ما كان موجودًا فى الكهف قمران ١ وفى أطلال المبنى الرئيسى لمجمع الطائفة مما يعطى دليلًا ماديًا

آخر على العلاقة القائمة بين مخطوطات الكهوف ومجتمع قمران. وبينما كانت بعض المقابر تحدد بحجر يوضع عند الرأس وآخر عند القدم إلا أن الغالبية كانت تحدد بقطع من الرخام البيضاوى. وكان من العلامات الدالة على زهد الجماعة وبساطتها غياب أى مظهر من مظاهر تقديم القربان أو الزينة على الجثث. وكانت الهياكل العظمية التى كشف عنها دى فوكس فى حالة سيئة من الحفظ وإن كان قد أرسل بعضها إلى باريس لفحصها من قبل البروفيسور هـ.ف. فالوا من «متحف الإنسان» والذى قرر أن بعض الرفات كانت هياكل عظمية لإناث. وباقى الرفات كانت لرجال بالغين ولم يقم هناك دليل على وجود رفات لأطفال فى هذه المقابر.

وصفوة القول وخلاصته حول الظروف التى حاقت بالمخطوطات التى حصل عليها كبير الأساقفة صموئيل وطار بها إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٤٩؛ إذ بينما هيئت المخطوطات للنشر فى نيوهافن كما أسلفت، بدأت الحكومة الأردنية تتعقب الرجل لأنه أخرج المخطوطات من البلد دون إذن رسمى مسبق وهددته بعقاب شديد عندما يعود إلى الأردن، ولكن رد كبير الأساقفة كان أنه عندما غادر فلسطين كان الانتداب البريطانى قد انتهى ولم يكن هناك أية جهة قانونية يمكن اللجوء إليها للحصول على الترخيص المطلوب وتطبيق الإجراءات.

إضافة إلى ذلك قرر الرجل بأن أية أموال سوف تتحصل من وراء تلك المخطوطات التى فى حوزته سوف تستخدم لتوسعة المرافق الدينية والتعليمية فى الكنيسة الأرثوذكسية السورية، طالما أن المخطوطات التى فى حوزته تعتبر من ممتلكات الكنيسة. وكانت آمال كبير الأساقفة عريضة من وراء النشر والبيع وكان هناك عدد من المؤسسات العلمية الأمريكية يأمل فى شراء واحد أو أكثر من تلك المخطوطات ولكن السؤال حول شرعية شراء هذه المخطوطات قد عرقل كثيرًا من جهود شراء المخطوطات الأربعة.

وعندما بات من الواضح أن نشر محتويات هذه المخطوطات سوف يقلل من القيمة المالية لشرائها بدلًا من العكس حيث كان كبير الأساقفة يأمل فى هذا، بدا صموئيل ومجلس أوصيائه يرسمون الخطط لبيع الوثائق بأسرع ما يمكن وبدون

تأخير وتقرر أن يعلن عنها فى أعمدة (أشياء مختلفة للبيع) فى «جريدة وول ستريت» على أمل أن تباع بسرعة وبسعر عالٍ. وفى ذاك الصيف كان الدكتور إيجال يادين يزور الولايات المتحدة وعرض عليه الإعلان، فاستخدم وسيطًا للبدء فى مفاوضات الشراء وتمت الصفقة بمبلغ ٢٥٠.٠٠٠ دولار على نحو ما ألمعت فى بداية هذا الفصل.

وأخيرًا فى الثالث عشر من فبراير ١٩٥٥م أعلن رئيس وزراء إسرائيل شاريت عن أن دولة إسرائيل قد اشترت مخطوطات البحر الميت التى كانت أصلًا فى حوزة الدير السورى. وأكثر من هذا قال أن الحكومة الإسرائيلية قررت بناء متحف خاص ليضم هذه المخطوطات إلى جانب تلك التى كانت قد اشتراها البروفيسور سوكنيك للجامعة العبرية سنة ١٩٤٧. وأعلن أن الصرح الجديد سوف يطلق عليه (قدس أقداس الكتاب) ولسوف يكون أيضًا مستودعًا للمخطوطات القديمة. وبعد ثمانية سنوات مضطربة وخطرة آن لمخطوطات البحر الميت أن توضع معًا تحت سقف واحد.

* * *